المحور الرابع: السياق التراتبي(1)(أول ما نزل وآخر ما نزل):

هناك مسائل كثيرة تلحق بقضية المكي والمدني، وهي قضايا متفرقة تعتني بالقرآن الكريم من حيث النزول. أي تشير إلى المسائل التي لها علاقة بزمن النزول أو الأزمنة التي نزل فيها القرآن؛ إذ المعروف أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، فبين أول آية نزلت وآخر آية ثلاثة وعشرون سنة تقريبا، وهي مدة زمنية طويلة جعلت الباحثين يتتبعون مراحل النزول القرآني وعلاقته بالآيات.

1 – أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه:

إن أول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى: « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق». وأما آخر ما نزل هو قوله تعالى:« واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون». هذا هو الصحيح الراجح الذي اختاره العلماء، وعلى رأسهم العلامة جلال الدين السيوطي، وهو منقول عن ابن عباس – رضي الله عنهما –؛ فقد أخرج النسائي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: « آخر شيء نزل من القرآن (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ...)، وقد عاش النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات ليلة الإثنين في الثالث من ربيع الأول. وأما قول بعضهم: إن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا " فهو رأي غير صحيح، لأن هذه الآية الكريمة نزلت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم — في حجة الوداع وهو واقف بعرفة، وقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها واحدا وثمانين يوما، وقبل وفاته بتسع ليال نزلت آية البقرة: "واتقوا يوما" فتكون هذه آخر ما نزل لا آية المائدة، وبنزول هذه الآية الكريمة انقطع الوحي، فكان ذلك آخر اتصال السماء بالأرض، وانتقل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الرفيق الأعلى بعد نزول ختام القرآن.

2 – ما نزل بمكة وحكمه مدني:

ونعني بذلك ما نزل بمكة بعد الهجرة، ومن أمثلته قوله تعالى:« يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير». فقد نزلت هذه الآية بمكة يوم الفتح، فهي مدنية لنزولها بعد الهجرة. وكذلك قوله تعالى: « اليوم أكملت لكم

دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا». فقد نزلت هذه الآية على النبي – صلى الله عليه وسلم – لدى وقفته بعرفات يوم الجمعة، فكان ذلك بمكة، فالآية تأخذ حكم المدني لنزولها بعد الهجرة.

وكذلك قوله تعالى:« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا». وقد نزلت هذه الآية على النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم الفتح وهو في جوف الكعبة، ومع ذلك فهي مدنية لنزولها بعد الهجرة، وهذا هو الاعتبار المعول عليه.

3 – ما نزل بالمدينة وحكمه مكي:

ونعني بذلك ما نزل بالمدينة قبل الهجرة. ومن أمثلته قوله تعالى: « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون». فقد نزلت هذه الآية في المدينة لتخاطب أهل مكة، فهي لذلك تأخذ حكم الآيات المكية. وقوله تعالى: « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين... يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا». فالسورة مدنية لنزولها بعد الهجرة، لكن هذه الآيات نزلت مخاطبة مشركي مكة، فلها حكم الآيات المكية.

وكذلك سورة الممتحنة فقد نزلت بالمدينة، لكن خطابها موجّه إلى أهل مكة أو متعلّق بأهلها، فهي مدنية من حيث النزول، لكن حكمها مكي.

4 – ما نزل من القرآن ليلا:

لا داعي للحديث عن القرآن الكريم الذي نزل نهارا، لأن ذلك أكثر القرآن. ومنه فإنه من الوجهة النظرية و العملية أن نبيّن بعضا ممّا أنزل ليلا.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب». فقد روي عن بلال بن رباح أنه « أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي، فقال يا رسول الله: ما يبكيك؟ فقال: وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ هذه

الليلة:" إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب"، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"».

ومنها قوله تعالى:« والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين». فقد «روي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: كان النبيّ – صلى الله عليه وسلم – يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من القبة، فقال: يا أيها الناس انصرفوا عنّي فقد عصمني الله».

ومنها كذلك مثال سورة مريم، فقد « روي عن أبي مريم الغساني – رضي الله عنه – قال: أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقلت: ولدت لي الليلة جارية فقال: " والليلة أنزلت علي سورة مريم سمّها مريم».

5 – ما نزل من القرآن شتاء:

ونعني بذلك ما نزل من القرآن الكريم في فصل الشتاء، ومن ذلك قوله تعالى في " قصة الإفك": « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم». فقد ذكر في تفسير هذه الآية الكريمة عن عائشة – رضي الله عنها – أن هذه الآيات نزلت في يوم شاتٍ.

وكذلك الآيات التي نزلت في غزوة الخندق من سورة الأحزاب، فقد كان نزولها في البرد الشديد؛ فقد روي عن حذيفة – رضي الله عنه – قوله: « تفرّق الناس عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلا فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: " قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب". فقلت يا رسول الله: والذي بعثك بالحق، ما قمت لك إلا حياء من البرد، فأنزل الله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا"».

6 – ما نزل من القرآن في السفر:

ونعني بذلك ما نزل من القرآن على النبيّ – صلى الله عليه وسلم – وهو في السفر، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها آية التيمّم في سورة النساء، وهي قوله تعالى:« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى ... إن الله كان عفوا غفورا».

ومنهـا كـذلك قولـه تعـالى:« يسـتفتونك قـل الله يفتـيكم في الكلالـة إن امـرؤ هلـك لـيس لـه ولـد .....والله بكـل شـيء علـيم». فقـد روي عـن حذيفـة بـن اليمـان – رضـي الله عنـه – أن هـذه الآيـة قد نزلت على النبيّ – صلى الله عليه وسلم – في مسير له.

وكـذلك قولـه تعـالى:« يـا أيهـا الـذين آمنـوا أوفـوا بـالعقود ...واتقـوا الله إن الله شـديد العقـاب». وهـي من أوائل سورة المائدة، فقد ذكر أنها نزلت والنبيّ – صلى الله عليه وسلم — في سفر إلى مِنى.